بين ابن تيمية وابن بطوطة أيضاً

قرأت ما كتبه[1] الأستاذ الطباخ تحت عنوان (افتراء ابن بطوطة على ابن تيمية) فرأيت ان اضيف اليه ما عندي في هذا الموضوع ، ليتبين مثبتو الحقائق هذا البطلان الذي بعد عهده ، وضل مناصروه :

لم يكن ابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع كما زعم ابن بطوطة ، (١ : ٥٧ فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ على منبر الجامع) بل لم يكن يخطب او يعظ على منبر الجمعة كما يوهمه قوله : « ونزل درجة من درج المنبر » وانما كان يجلس على كرسي يعظ الناس ، ويكون المجلس غاصاً بأهله ، قال الحافظ الذهبي : « وقد اشتهر امره وبعد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه » الخ وقال الشيخ علم الدين البرزالي في معجم شيوخه : « وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يفسر القرآن العظيم » الخ .

وانما كان يخطب الناس على منبر الجامع الأموي في عهد دخول الرحالة ابن بطوطة دمشق - قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، وقد كان خطيب المسجد وامام الشافعية فيه ، وكان سكناه بدار الخطابة (ج ١ : ص ٥٦ رحلة ابن بطوطة)

ومما تقدم يعلم ان ابن تيمية كان مدرساً واعظاً ، لا خطيباً ، وكان يلقي درسه في التفسير صبيحة كل جمعة وهو جالس على كرسي في الجامع الأموي ، لا واقف على منبر فينزل درجة عنه ، وقد اشار الى ذلك الحافظ المؤرخ ابن عبد الهادي بقوله : « ثم ان الشيخ جلس يوم الجمعة (اي بدمشق) على عادته ، وقال وهو يصف حاله وأعماله بمصر : « ويتكلم في الجوامع على المنابر من بعد صلاة الجمعة الى العصر » فهو لم يقل على منابر الجمعة ، ولا على منابر الخطابة ، والظاهر ان المراد بالمنبر كل ما ارتفع عن الأرض كما يؤخذ من مفهومه اللغوي ، فهو يعم هذه الكراسي التي يجلس عليها المدرسون في المساجد الكبرى بمصر والشام والعراق ليسمع منها الجماهير ، فكيف غفل ابن بطوطة عن ذلك ؟ وقال الحافظ ابن حجر : « وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث ، فيورد في ساعة من الكتاب والسنة واللغة والنظر ما لا يقدر احد على ان يورده في عدة مجالس ، كأن هذه العلوم بين عينيه (ص ١٥٣

(١) مجلة المجمع العلمي (ص ١٣٢ م ١٧)

ج ١ من الدرر الكامنة) وهذا مما يؤكد أنه كان يلقي درسه على كرسي يجلس عليه والمستمعون حوله ، فكلامه على طريقه المفسرين — من بعد صلاة الجمعة الى العصر ، وايراده من الآيات والأحاديث ونصوص اللغة وأقوال العلماء في مجلس واحد ، مـا لا يورده غيره في مجالس كثيرة كما تقدم — هو طريقة المدرسين المحققين في حلقات المجالس الكبرى ، لا خطباء المنابر وهم وقوف ، لاسيما وقد صرحوا بجلوسه في دروسه ، وهذا لا يتيسر على منـابر الخطب الجمعية .

وبعد فهذه كتبه المخطوطة والمطبوعة ، ورسائله وفتاويه وردوده في العقائد قد بسط الكلام فيها على آيات الصفات والأفعال وأحاديثها كالوجه واليدين والاستواء والنزول وغيرها ، بالمعقول والمنقول ، وكلها يتضمن إثبات الأسماء والصفات ؛ مع نفي مماثلة المخلوقات ، اثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما جاء في القرآن الكريم « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » فقوله « ليس كمثلة شيء » رد للتشبيه والتمثيل وقوله : « وهو السميع البصير » دفع للإلحاد والتعطيل .

ألا وان العلوم الحديثة قد قربت فهم النصوص على طريقة السلف وبينت أنها الأعلم والأحكم ، دع كونها الأهدى والأسلم ، فمن ذلك حديث النزول الذي أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين : « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا » الخ فان الآلة التي تريك المتكلم الآن حاضراً عندك وهو لم يبرح مكانه (Télévision) تهدينا الى فهم النزول الى سماء الدنيا بلا انتقال ، وان هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل كما قال القاضي ابو يعلى ، ومثله اسناد صفة الكلام اليه تعالى في قوله : « وكلم الله موسى تكليما » وقول رسوله : اذا تكلم الله بالوحي ، فهو لا يحتاج الى تأويل فراراً من شبهة التشبيه ، فقد أنطق العلم الحديث الآن الجمادات فنطقت بغير فم ولا لسان كالحاكي مثلا ، أفتأبى قدرة الله وحكمته الا أن يتكلم بفم ولسان كالإنسان ؟ اليس هو القادر على أن يختم على فم الإنسان وينطق جسمه الصامت كما قال : «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم » الآية ، أفيعقل أن يكون هذا القادر الحكيم عاجزاً عن التكلم إلا بمثل فم المخلوق ؟

وختام القول ان هذه الرواية مختلقة على ابن تيمية شيخ الإسلام سواء صحت عن ابن بطوطة أم لم تصح ، فهو لم يره ولم يسمع منه كما قال الأستاذ الطباخ ، وكما

نشرنا من قبل مقالاً ضافياً في موضوعه ، (في الجزء العاشر من مجلة دمشق الصادر في تشرين الأول سنة ١٩٤٠ الموافق لشعبان سنة ١٣٥٩) ومؤلفاته جميعها ترد عنه هذه الكلمة الشاذة ، بل لو ثبتت الرؤية والسماع لقلنا ان ابن بطوطة شبه له ابن تيمية ، وحكايات الشبه والاشتباه في الأشخاص والأشياء لا تكاد تحصر ، وهي داخلة في باب الشخصية (Identification) من كتب الطب الشرعي وغيره . على ان ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه ، وإنما أملاها على الكاتب الأديب ابن جزى الكلبي ، وقال هذا في المقدمة : ونقلت معاني كلام الشيخ ابي عبد الله بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمعاني التي اعتمدها ، فيجوز ان يكون ذلك من تحريف النساخ ، أو وسوسة بعض الخصوم ، والله عليم بذات الصدور .

محمد بهجة البيطار

ملاحظات لغوية

— أ —

للأب العلامة المحقق الكرملي همة بعيدة ودؤوب عجيب في خدمة لغتنا الكريمة ، وقد بدت لي في مقاله الأخير (الأوهام العائرة) ملاحظات أنا عارضها عليه :

١ — ذكر في ختام مقاله[1] قوله : « وأما اذا ثنيت المضاف فهذا معناه أن للمضاف المثنى مضافين اليه لا مضافًا واحداً . فقولك كتابا الملك والأمير معناه أن للملك كتابين وللأمير كتابين ، وانت لا تريد هذا . » اه والمعروف ان الامر أوسع من ذلك ، فلك أن تقول كتابا الملك والأمير أو (كتاب الملك والأمير) فاذا خفت اللبس غيرت في بناء الجملة حتى ينكشف . والله تعالى يقول : « ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما » وهو لا يعني أن لكل منهما عدة قلوب . بل قلب واحد كما هو ظاهر . والعرب تتوسع في هذا الباب وتعتمد فيه على القرائن .

وفي كتاب (الصاحبي) للإمام الكبير أحمد بن فارس أبواب عقدها : للواحد يراد به الجمع ، والجمع يراد به واحد او اثنان ، والجمع الذي يراد به الاثنان الخ (ص ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ طبعة السلفية ١٣٢٨) فالأمر كما ترى أوسع من ان نضيقه .

(١) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد السابع عشر ص ١١٢ س ١